من تراب الطريق (٤٧٧) سنن الأسباب (*)

لفتتنى قراءة فى مقدمة فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله ، إلى قراءة أو رؤية بالغة الأهمية لصلاة الخوف التى سنها القرآن المجيد .. تستحضر معانى لافتة لعناية الإسلام باتخاذ الأسباب مهما كانت الصوارف أو المصاعب أو الأخطار ..

يقول الحكيم الخبير ، تعالت حكمته ، إلى رسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء] ..

ومن يتأمل هذه الآية ، يرى كيف تنبه إلى وجوب الحذر والأخذ بالأسباب ، حين تقوم موجباتها ، حتى فى الصلاة والعابدين بين يدى رب العزة .. فالآية ترتب صلاة الخوف للمصلين الذين تتهددهم أخطار ، كيف يؤدون الصلاة آخذين بأسباب الحذر ، تأمرهم أن تقوم طائفة منهم معها أسلحتها ليكونوا وراء الساجدين ، ولتأتى طائفة أخرى لم يصلوا فيصلوا مع الرسول ﷺ ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم حتى لا يميل عليهم

(*) المال ١٧/٨/٢٠١٠ .

الأعداء ميلة واحدة مستغلين قيامهم بمناسك الصلاة .. فتأمّل كيف يُكَلّف العابدون ، وهم فى صلاتهم بين يدى الله ـ بأشد الحذر والانتباه لما يتهددهم من خطر ؟ شاءت حكمة الله تعالى وعنايته أن تستحضر وجوب الأخذ بالأسباب مهما كانت الصوارف وحتى فى العبادات .. فلم تعدهم الآية بملائكة تنزل لتحمى المصلين ، وإنما أوكلت إليهم أن ينظموا أنفسهم ويتخذوا من الأسباب والاحتياطات والترتيبات فى صلاتهم ما يؤمنهم من الخطر الذى يتهددهم .

ومن يتأمّل النواتج النهائية فى معركة أُحُد التى شنها الكفار وطواغيت قريش على المسلمين فى المدينة المنورة ، وألجأوهم إلى الخروج لمواجهتهم فى أُحُد حتى لا يدَعوا لهم فرصة مداهمة الأسر والبيوت فى المدينة .. من يتأمّل مسار هذه المعركة ، وكيف دان النصر فى بدايتها للمسلمين على الكفار الذين كانوا أكثر عددًا وعدة ، حين التزموا الأخذ بالأسباب ، سيرى أن الدائرة لم تدر عليهم فى نهايتها إلاّ حينما تركوا الأسباب وغادروا قمة الجبل التى كانوا يسيطرون منها على المعركة ، فلم يكن البلاء الذى حلّ بالمسلمين ، إلاّ إشارة جلّية لأثر ترك الأخذ بالأسباب !!

ومع أن القرآن الحكيم معجزة الإسلام إلى الدنيا فى كل عصر ، فى بلاغته ورصفه وبيانه وجرسه ومعماره وهدايته وأحكامه ، وصلاحيته لكل مكان وزمان ، إلاّ أنه نوّه بالعقل وقام على إيقاظ المواهب العليا فى الإنسان ، ودعوته إلى إعمال عقله ، والتدبّر والتفكير ، وجعل النبوّة المحمدية نبوّة هداية تخاطب العقل والوجدان والضمير ، وليست نبوّة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال ، أو دعوة لترك اتخاذ الأسباب . بل ترى أن النبى ـ عليه

الصلاة والسلام ـ جاءته سمعة المعجزة (المادية) الخارقة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموته ، فأبى عليهم ذلك ، وقال لهم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته .

وتروى الأخبار المأثورة كثيرًا من المعجزات والخوارق التى صاحبت مولد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وطفولته ، ولكنه لم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه ، فكانت نبوّته هداية للعقل والضمير ، لم تتوسل فى هدايتها بالخوارق والقوارع الحسية ، بل عنيت بصرف الناس عن التعلق بها والتنبيه إلى احتمالات تعطيلها لملكة العقل فى استقبال هداية الله .

فيقول عليه السلام للناس إنه ليس إلاّ بشرًا رسولًا ، ويتلو عليهم من قول ربه : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء] .. علم ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم الناس أن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على العناد واللجاجة فى باطله .. لم تختلط هذه النبوّة الهادية ، بسحر ولا بكهانة ولا بتنجيم .. بل يحرص حاملها على نفى ذلك ، ويدعو المؤمنين للأخذ بالأسباب وعدم إيكال الأمور للخوارق أو استطلاع الغيب ، فيتلو عليهم من قول ربه : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] .. ويقول لهم من قول ربه سبحانه وتعالى له : ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام] .

من يتأمّل الكون العظيم الذى أمر القرآن الحكيم بالتأمّل والتفكّر فى آياته ، يلفته أن إرادة الله ﷻ قد شاءت أن تقيمه على سنن الأسباب .. يراها المتأمّل

حاضرة فى كل ركن من أركان هذا الكون .. فى الأرض التى تدور حول نفسها لتهب الليل والنهار ، وفى الجاذبية المحسوبة بمقدار لتسير الأفلاك فى مسارها بالسماء لا تتعداها .. فى الشمس التى تهب النور والدفء والحياة ، وفى دورة البخر الذى يتحول إلى غمام تهطل منه الأمطار لتجرى بها الأنهار لتهيئ سبل العيش للكائنات ..

لم يقل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، ولا قال أحد من صحابته ، أن السماء تسعى لهم من حيث يقعدون ، أو تنشط لهم حيث يتكاسلون ، ولم تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب أساسًا ولا طلاءً فى بناء هذه الأمّة المحمدية ، فلم ينخرم للنبى عليه السلام وصحابته قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل تعبوا وكدّوا أكثر مما تعب وكدّ من أخرجوهم وتحالفوا وتمالئوا عليهم ، وحمل هؤلاء السابقون الأولون ـ حملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ، فمكن سبحانه وتعالى لهم بما قدموه واتخذوه من أسباب ..

*****